فتح الاندلس

(اخذت جامعة بيروت الاميركية تعلّم طلبتها ان يبحثوا في التاريخ كأنهُ علم من العلوم الطبيعية المبنية على الاستقراء فلا يكفي النقل فيهِ بل لا بدَّ من تطبيقهِ على نواميس الاجتماع المؤيدة بالاستقراء كما يظهر من هذه المقالة التي انشأها احد طلبتها من نوابغ الشبيبة الاسلامية السورية. المقتطف)

ان اسبانيا الجميلة التي يطلق عليها العرب اسم الاندلس كانت قبل الفتح منهوكة القوى تتآكلها الاحزاب وتنفخ فيها سموم التفرقة والخذلان فشعبها كان يئنُّ من عسف الارستقراطية وتتألم اقليتهُ من الاضطهاد. اجل كانت هناك اسباب تضرب بجذورها من وراء مسرح المملكة القوطية وان اردنا ان نعرف قوة الامة وجب ان لا نأخذ مقياساً لها ابهتها وولائمها وما تظهرهُ من المظاهر البراقة الخلابة بل يجب ان نبحث هنا وهناك بين افراد الشعب اذ الشعب هو الكتلة التي تتألف منهُ قوة الامة وعظمتها. يجب ان نبحث عن سعادة الطبقة الوسطى التي من ابنائها نرى التاجر والصانع والعامل والفلاح وعن اولئك الذين عضهم الفقر بنابهِ فكانوا العبيد كما يدعونهم

وهكذا اسبانيا فقد كان الضعف مستولياً على ارجائها. كمقاطعة رومانية حكمها القياصرة المتأخرون وكانت كابقية الباقية من المقاطعات الرومانية سيئة الحال. وقد قال عنها المؤرخ Salvien الذي عاش في القرن الخامس للميلاد انهُ لم يبقَ من اسبانيا الخصبة السعيدة غير اسمها (١). ذلك لان جميع الاقطاعات التي يسمونها لاتيفُندیا Latifundia قد اغتصبها الاغنياء القليلو العدد وجعلوها ملكاً حلالاً لهم يتصرفون بها كما يشاؤون. وكانت الضرائب تجبى من الشعب الوسط فانقلت كاهلهُ بينما نرى الاغنياء والكهنة ومشرعي الحكومة وكل من حاز القاباً سامية قد أعفي منها. وكان هؤلاء يعيشون في قراهم الجميلة القائمة الى جانب الانهر وعلى سفوح التلال مترفين يمضون اوقاتهم في مختلف الالعاب كالقنص وغيرهِ لانهم لهم غير الاكل والنوم والاستحمام وكان بعضهم يجيد القراءة فيلهو بها. في قصورهم

(١) Histoire des Musulmans D'Espagne الجزء الثاني صفحة ٤

التي زُينت بانواع الرسوم اللطيفة كان العبد يقف في غرف الاكل لكي يخدم اسيادهُ وهم يشربون الخمر الفاخرة ويشنفون آذانهم بانغام الموسيقى ويتمتعون انظارهم برؤية الراقصات والراقصين

وحياة كهذه لا بدَّ تريك الفرق الجسيم الذي يفصل الاغنياء عن بقية الشعب الفقير وضعفاء الملاَّك . وكانت العبودية الزراعية "Esclavage Agricole" قد انتشرت في هذه الطبقة انتشاراً هائلاً وهي الحالة الوسطى بين الحرية الحقيقية والعبودية. كان هؤلاء العبيد الزراع اوفر حظاً من بقية العبيد اذ انهُ كان يؤذن لهم بشيء من غلاَّت الارض التي يفلحونها ولهم امتيازات منها التزوج من غير استشارة صاحب الارض وكان ذلك ممنوعاً على بقية العبيد . اما الحكومة فكانت تعبرهم جانباً من الضرائب فيجندون ويدفعون ضريبة الاعناق . وما كان لصاحب الارض ان يحرمهم مما اقطعهم اياهُ ولا هم قادرون ان يبيعوا ما أُعطوهُ الاَّ باذن من مالكهم

وحقيقة الحال انهم كانوا عبيداً للارض لا للانسان فما كانوا ليباعوا دون الارض التي يعملون عليها ولا كانت الارض تباع دونهم وعلاقتهم بها علاقة لا تُحلُّ وهي وراثية يتناولها الابناء من الآباء (٢)

اما العبيد فكانوا اتعس البشر حظّاً يباعون ويشرون كحيوان من الحيوانات او متاع من امتعة البيت . وهم كثيرو العدد نسبةً الى الاحرار فكان الواحد من اصحاب الاقطاعات يملك اربعة آلاف او خمسة آلاف او ثمانية آلاف من هؤلاء البؤساء وكانوا يعاملون بلا شفقة ولا رحمة تلعب السياط بابدانهم وترهق ارواحهم ظلمات السجون ولذا كانوا يهربون الى الخراج ويقيمون في الاودية والجبال ثم يسطون على املاك اسيادهم آناً بعد آن ويسلبون السابلة ويقطعون الطرق . تلكم كانت حالة الشعب الاسباني في العصر الروماني الاخير وقد ظلت هذه الشرائع الرومانية سائدة في الحكم الاقطاعي ايام القوط ترهق العبيد والزراع ظلماً حتى عشية الفتح الاسلامي

الى جانب المتألمين من الشعب الاسباني يجب أن نضم اليهود الذين قاسوا من الاضطهاد الشيء الكثير فلا بدع اذا طربوا يوم قدم العرب الى افريقية اذ انهم

(٢) Histoire des Musulmans d'Espagn . "Dozy" الجزء الثاني صفحة ٧

كانوا يودون التخلص من الأسياد القوطيين واستبدالهم بالأسياد من العرب . كانوا قبل أن يتسلم الملك ريكارد العرش الأسباني (٥٨٦ ـ ٦٠١) في سعادة وهناء لانهم كانوا مديري دفة المالية في الأندلس لما لهم من الخبرة الواسعة في الاقتصاديات والمامهم بدقائق التجارة واحوالها واليهم كان يرجع حرث الارض واستدرار خيراتها وغناها (٣) ولكن لم يكد ريكارد يستلم زمام الامور حتى عقد المؤتمرات القضية بتعذيبهم وسنت القوانين لاضطهادهم وذلك بدافع التعصب والحسد والطمع فاعاد يؤذن لليهود باقامة شعائرهم الدينية ولا الزواج حسب شريعتهم وتقاليدهم ولا اباح لهم اقتناء الرقيق ولا اقتناء المحرم والتفريق بينها ولا الشهادة على المسيحيين ولو بشق وكل من يخالف هذه الاوامر يرجم بالحجارة حتى يموت أو يحرق حياً . وهذه القوانين ماكانت لتوضع في بدئها موضع التنفيذ تماماً وذلك لما كان يبذله اليهود من الاموال على سبيل الرشوة لأولياء الامور وقد زاد عليها الملك سبوت (٦١٢ ـ ٦٢٠) غيرها من المواد منها عدم الاذن لليهود باقتناء العبيد من المسيحيين ومن لم يسر بحسب ذلك يحجز نصف املاكه ومقتنياته

ولما كان الزواج شائعاً بين اليهود والمسيحيين من الجنسين فقد صدر قانون في هذا الشأن يقضي بان يربى الابناء المولودون من والدين احدهما مسيحي حسب المعتقد المسيحي . أما من يرتد من اليهود الذين تنصروا فكان يحكم عليهم بالعبودية الدائمة

ولم يكتف الملك سبوت بهذه القوانين بل صمم على اعدام الامة اليهودية في اسبانيا ولذلك امر بان يعتنق اليهود اجمعهم الدين المسيحي والا كان جزاؤهم الطرد من البلاد . فتنصر منهم تسعون الفاً (٤) مسيرين لا مخيرين وقد اجبر كثير منهم على الهرب الى فرنسا وافريقية . أما من اصر منهم على اتباع معتقده فعومل بالشدة وقاسى في غياهب السجون عذاباً شديداً

---

(٣) History of the Jews by H. H. Milman. D. D. الجزء الثاني صفحة ٢٥١ راجع الفصل الثاني والعشرين من هذا الجزء

(٤) Milman D. D الجزء الثاني صفحة ٢٥٤

"History of the Conquest of Spain" By Henry Coppé الجزء الاول صفحة ٥٠

Histoire des Musulmans d'Espagne. Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٦

وممن وقف معارضاً الملك في احكامه العالم ايسيدور الاشبيلي (٥٦٠–٦٣٦) Isidore of Seville ومع ذلك فكانت صرخاتهُ في واد

ولما كان العدد الأكبر من اليهود قد ظلَّ على معتقدهِ سراً واظهر النصرانية علناً فقد أمر مجمع طليطلة الرابع سنة ٦٣٣ م أن يؤخذ منهم اطفالهم لكي يربوا في الأديرة (٥) . أما مجمع طليطلة السادس (٦٣٨ م) فعاب تساهل المجمع الرابع وقرر أن لا يعتلي سلك عرش اسبانيا الا اذا اقسم انهُ يضطهد اليهود ومن لم يفعل ذلك منهم يُخلع (٦) ولذا نرى بعد ذلك مجمع طليطلة الثامن يجبر الملك ان يحافظ على قسمهِ وان ينفذ القوانين المختصة باضطهادهم

وليس من الغريب أن نرى يهود اسبانيا تتآمر مع يهود افريقية لاستجلاب العرب الفاتحين الذين امتد سلطانهم على افريقية الشمالية ولذا اتهموا بالجريمة الكبرى وهي انهم حاولوا تسليم البلاد للاعداء واسقاط الملكية وذبح المسيحيين فشدد الملك اجيكا Ejica النكير عليهم وعقد مجمعاً في طليطلة طلب فيهِ عقابهم الشديد وقد أقرّ اليهود يومئذٍ أن بعضهم هذا أرادوا أن يجعلوا اسبانيا يهودية ولذا حكم المجمع عليهم بالعبودية وحرمهم املاكهم ومنع الزواج فيما بينهم فأصبحت اليهودية لا تتزوج الا مسيحياً واليهودي لا يتزوج الا نصرانية (٧) وشتتوا في انحاء المملكة أو هربوا أو ساعدوا المسلمين بكل مالديهم من مال وقوة. ومع كل ما لاقوهُ لم يتحولوا عن دينهم بل حافظوا عليهِ وعكوا بهِ (٨) وكانت نتيجة الاضطهاد أن جعلت منهم قوة من أعظم القوى التي دمرت المملكة القوطية (٩) فان مساعدة اليهود لفئة صغيرة من العرب جعلتهم أن يخضعوا امة تتألف من ستة ملايين

---

(٥) Coppé الجزء الاول صفحة ٢٠٠ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٠٦ . Milman الجزء الثاني صفحة ٢٥٠

(٦) Milman الجزء الثاني ٢٥٦ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٧

(٧) Milman الجزء الثاني صفحة ٢٦١ . Dozy الجزء الثاني صفحة ٢٨

(٨) ذلك لان النجدة متى تجاوزت حدها جعلت من المضطهدين رجالا

(٩) History of the Moorish Empire in Europe by S. P. Scott الجزء الاول صفحة ٢١٣ — ٢١٢

وكان كل من العرب واليهود يعمل لمصلحته الخاصة فاليهودي قوي عاله وقد زاده اضطهاده المتواصل قوة وجعل منه رجلاً شديد الانتقام يطلب التخلص من الكابوس القوطي واستبداله بحكومة متساهلة تكفل له الراحة والهناء لكي يعلي شأن المعاملة وكسب الاموال. اما العربي فكان يود الغنيمة من الفتح ولذا اتفق الشعبان في الغاية

ولا يغرب عن بالنا ان اليهود بعد الفتح كانوا اما ان يعاشوا الاسبان على العرب او العرب على الاسبان وذلك حسب ما تقتضيه مصالحهم فلما اضطهدهم العرب لمأربهم الوفير رجعوا الى الاسبان خاطبين مودتهم طالبين مساعدتهم وساعدوا الفونس السادس على تسنم عرشي قسطاله وليون سنة ١٠٨٥ م (١٠)

لا شبهة ان لليهود ضلعاً كبيراً في فتح اسبانيا وأن أهل ذكرهم مؤرخو العرب والاسبان ولابدّ ان يكون موسى بن نصير قد جعل من اليهود انصاراً واعواناً اذ منهم كان يأخذ التعليمات والاخبار عن اعدائه مع الاحصاءات الكثيرة وذلك عن طريق التجارة وبها توصل العرب الى معرفة حقائق جمة . وكان لهم علاقات كبيرة مع الكونت يوليان حليف العرب في الفتح اذ هو ايضاً طلب مساعدتهم . وقد اظهر اليهود للقائدين موسى ويوليان كرماً حاتمياً لان الصفقة رابحة والتجارة غير خاسرة (١١)

أما اتصال اليهود باسبانيا فيرجع الى عهد سليمان وذلك حينما كانت اساطيله تنتاب من ترشيش حاملة اليها الذهب والفضة والعاج وقد كان بعض تجارهم قد استوطنوا اسبانيا وجعلت جاليتهم تكثر في الأندلس لكثرة من ساد على وطنهم من جيوش الفاتحين فأخذوا يهاجرون الى اسبانيا موجات موجات عن طريق افريقية الشمالية . ولما هدم طيطس القدس (اورشليم) أمّ قسم كبير منهم تلك الديار ونظراً لذكائهم ومهارتهم في الصناعة والتجارة فاقوا الشعوب الاسبانية بما جمعوه من المال فادّى ذلك الى اضطهادهم وكرههم مع شيء من العوامل الدينية

وكان في اسبانيا حزبان يتطاحنان كل منهما بود التسلط والقضاء على الحزب

---

(١٠) Coppé الجزء الاول صفحة ٢٠٨

(١١) Coppé الجزء الاول ٢٠٩

الآخر الأول رئيسة ابناء غيطشه Witiza والثاني رئيسه لذريق (رودريك Roderik) مغتصب عرش ابيهم

وذلك انه لما توفي اجيكا الملك القوطي في توقير سنة ٧٠١ تسنم العرش ابنهُ غيطشه الذي كان حاكماً في الشمال الغربي من المملكة . وقد كان من بدء اعماله اعفاؤهُ القوم من بعض الضرائب وبذله المال للرجال والعفو عن المنفيين الذين كانوا قد أُبعدوا بامر من ابيه وذلك لكي يستولي على القلوب ويعيش آمناً . ولكنهُ بعد ان سار شوطاً جليلاً في ميدان الاصلاح احاط نفسهُ بحاشية مبتذلة ليس لها من الأخلاق السامية ما يردعها عن ارتكاب المنكرات وعلى رأسها الملك نفسهُ

وقد كانت الكنيسة الرومانية ناقمة عليه لاعطائه الرخصة للكهنة بالزواج واصدار اوامره لليهود المنفيين بالرجوع الى اسبانيا واستمتاعهم بالحقوق الوطنية الأهلية التي كانت للمسيحيين حتى انه اعلن ذلك في مؤتمر عقدهُ في طليطلة

ولما اتاهُ رسول البابا طالباً اليه ان لا ينفذ ما اصدرهُ من القرارات ضرب بملاحظاته عرض الحائط وابى ان يلبي طلبهُ وعوّل ان يجعل الكنيسة تابعة لاوامره ولأجل ذلك اصدر قراراً ينص على ان يكون للكنيسة « رئيسان » حاميان لها ولذا عين اخاهُ أوباس Oppas مطران اشبيلية مطراناً لطليطلة ايضاً بجانب سندريدو Sinderedo رسول البابا فيها ليكون عوناً عليه ورقيباً (١٢)

وهذه الحال المملوءة من الانحطاط الأخلاقي حملت الشعب على الثورة وعاضدهُ الملك المذكور . لكن الملك كان رقيباً عليهم وقد اخذ عدتهُ لمناجزتهم الحساب فقتك بالامراء والكبراء الذين كان الشعب يعتمد عليهم وهذا ما زاد في سخطهم عليه وكرههم له

ثم امر ان تهدم اسوار المدن الثائرة وان تخلى الحصون من وسائل الدفاع (١٣) وعما زاد في الطين بلة جمعهُ سلاح الأهلين حتى جعلهم ضحايا اعتسافهِ على ان هذا لم يطل فانهُ توفي سنة ٧٠٩ م

وتسلط لذريق اكبر زعماء المعارضين لغيطشه وتغلب على الاندلس ولم يكن

(١٢) Coppé الجزء الاول صفحة ١٥٠

(١٣) Coppé جزء اول صفحة ١٥٢

من سلالة الملوك (١٤) الذين اعتلوا عرش اسبانيا بن رجلاً نبيلا محترماً لشجاعته ومواهبه . وضع نفسه على رأس حزب شعبي فرفعه الى العرش بدلاً من وارثيه الشرعيين وكان حزبه يتألف من الرومانيين الذين استوطنوا اسبانيا ورجال الكنيسة الكاثوليكية وقد نجح لتدريق باستمالة هؤلاء وبعض كبار بلاد غيطشه الذين نظروا الى المستقبل وما يحيط به من غياهب السياسة المقبلة وهم على الغالب ممن يمثلون الدورين في كل مملكة ويجعلون الأحزاب وسيلة لغاياتهم الشخصية

ثم ان غيطشة كان قد منع الزواج بين الرومان والقوط لكي يجعل حداً واضحاً وفراغاً كبيراً بين القوط الغالبين والرومان المغلوبين (١٥) وهذا ما أدى الى التنافر بين الشعبين بدلاً من تقاربهما واندماجهما بصلات القرابة

ولهذا كان الشعب مهيئاً للثورة فاشتعلت في قرطبة حيث يكثر اشياع لتدريق من الرومان ورجال الكنيسة الكاثوليكية وسار الى طليطلة حيث تُوج . وما كاد يعتلي العرش حتى نسي الشعبية وغاص مع حاشيته في بحور اللهو فقضى اوقاته بين الكؤوس والولائم حتى اغتال جمعه ولم يعد في جندوتلك الروح الحربية الجيدة والحماسة الزائدة التي دفعت القوط من قبل الى اجتناء اكاليل النصر من البنطيك الى البحر المتوسط

ان الضرائب الجسيمة التي كانت تجبى من الشعب لاجل ترف الملك ولهو اصحابه لم تكن نتيجتها الا الشقاء والفقر المدقع في الامة . هذا عدا الطاعون الذي كان يرتاد البلاد مرة اثر اخرى من ايام اجيكا فيعضهم الجوع بنابه . اجل ذلك خسّر القوط قوائم الحربية حتى انهم اصبحوا فريسة لاي عدو مهاجم

ولما كانت قرطبة مركزاً رئيسيًا لاشياع الرومان والكاثوليك فقد جعلها عاصمته بدلاً من طليطلة التي كان فيها انصار غيطشه وابناؤه . ونزل في القصر الذي يدعوه العرب بلاط لذريق

ستأتي البقية انيس زكريا النصولي

---

(١٤) فتح الطيب من غصن الاندلس الرطيب لاحمد المقري الطبعة الازهرية المصرية الجزء الاول صفحة ١١٧ (١٥) Lafuente جزء اول صفحة ١٧٥